تفسير إبن كثير

صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ

وهم مع ذلك (صم) لا يسمعون خيرا (بكم) لا يتكلمون بما ينفعهم (عمي) في ضلالة وعماية البصيرة ، كما قال تعالى : (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) [الحج : 46] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهداية التي باعوها بالضلالة .ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه :قال السدي في تفسيره ، عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وعن مرة ، عن ابن مسعود ، وعن ناس من الصحابة ، في قوله تعالى : (فلما أضاءت ما حوله) زعم أن ناسا دخلوا في الإسلام مقدم نبي االله صلى االله عليه وسلم المدينة ، ثم إنهم نافقوا ، فكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة ، فأوقد نارا ، فأضاءت ما حوله من قذى ، أو أذى ، فأبصره حتى عرف ما يتقي منه فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره ، فأقبل لا يدري ما يتقي من أذى ، فكذلك المنافق : كان في ظلمة الشرك فأسلم ، فعرف الحلال والحرام ، و [عرف] الخير والشر ، فبينا هو كذلك إذ كفر ، فصار لا يعرف الحلال من الحرام ، ولا الخير من الشر

.وقال مجاهد : (فلما أضاءت ما حوله) أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى

.وقال عطاء الخراساني في قوله : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) قال : هذا مثل المنافق ، يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ، ثم يدركه عمى القلب .وقال ابن أبي حاتم : وروي عن عكرمة ، والحسن والسدي ، والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني .وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، في قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) إلى آخر الآية ، قال : هذه صفة المنافقين . كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم ، كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ثم كفروا فذهب االله بنورهم فانتزعه ، كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في ظلمات لا يبصرون .وقال العوفي ، عن ابن عباس ، في هذه الآية ، قال : أما النور : فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به ، وأما الظلمة : فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به ، وهم قوم كانوا على هدى ، ثم نزع منهم ، فعتوا بعد ذلك .وأما قول ابن جرير فيشبه ما رواه علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله تعالى : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) قال : هذا مثل ضربه االله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام ، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء ، فلما ماتوا سلبهم االله ذلك

العز ، كما سلب صاحب النار ضوءه .وقال أبو جعفر الرازي ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا) فإنما ضوء النار ما أوقدتها ، فإذا خمدت ذهب نورها ، وكذلك المنافق ، كلما تكلم بكلمة الإخلاص ، بلا إله إلا االله ، أضاء له ، فإذا شك وقع في الظلمة .وقال الضحاك [في قوله] (ذهب االله بنورهم) أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به .وقال عبد الرزاق ، عن معمر ، عن قتادة : (مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله) فهي لا إله إلا االله ؛ أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وأمنوا في الدنيا ، ونكحوا النساء ، وحقنوا دماءهم ، حتى إذا ماتوا ذهب االله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون .وقال سعيد ، عن قتادة في هذه الآية : إن المعنى : أن المنافق تكلم بلا إله إلا االله فأضاءت له الدنيا ، فناكح بها المسلمين ، وغازاهم بها ، ووارثهم بها ، وحقن بها دمه وماله ، فلما كان عند الموت ، سلبها المنافق ؛ لأنه لم يكن لها أصل في قلبه ، ولا حقيقة في عمله .(وتركهم في ظلمات) قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (وتركهم في ظلمات) يقول : في عذاب إذا ماتوا .وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة ، أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : (

وتركهم في ظلمات) أي يبصرون الحق ويقولون به ، حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفئوه بكفرهم ونفاقهم فيه ، فتركهم االله في ظلمات الكفر ، فهم لا يبصرون هدى ، ولا يستقيمون على حق .وقال السدي في تفسيره بسنده : (وتركهم في ظلمات) فكانت الظلمة نفاقهم .وقال الحسن البصري : (وتركهم في ظلمات لا يبصرون) فذلك حين يموت المنافق ، فيظلم عليه عمله عمل السوء ، فلا يجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول : لا إله إلا االله .(صم بكم عمي) قال السدي بسنده : (صم بكم عمي) فهم خرس عمي .وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (صم بكم عمي) يقول : لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ولا يعقلونه ، وكذا قال أبو العالية ، وقتادة بن دعامة .(فهم لا يرجعون) قال ابن عباس : أي لا يرجعون إلى هدى ، وكذلك قال الربيع بن أنس .وقال السدي بسنده : (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) إلى الإسلام .وقال قتادة : (فهم لا يرجعون) أي لا يتوبون ولا هم يذكرون .